

الحج

للدكتور عبد الوهاب عزام

—>>><<<—

كان سلفنا إذا أرادوا الحج تأهبوا لسفر شاق ، وغاية بعيدة وتزودوا لشهور عدة ، ووطنوا أنفسهم على ما يلقون من المشقات والشدائد والأخطار . كان المصريون يذهبون بالبر من طريق سيناء فالعقبة لا يركبون البحر ، أو يسيرون إلى القصر فيجتازون البحر إلى الحجاز . ثم جاء عصر البواخر فتيسرت التاية وقصرت المدة ، ولكن بقي بعد هذا قطع المسافة بين مكة والمدينة على ظهور الأبل ، وبقي سوء الأحوال الصحية في مجامع الحج ، والتعرض للصوص وقطاع الطريق في كل مرحلة وكل حين . بل كان الحمل المصري وهو في حراسة الجنود والمدافع لا يجتاز المسافة بين مكة والمدينة إلا بعد إرضاء القبائل الضاربة على الطريق . وكان هؤلاء يتحكون ويشدون في مطالبهم ، فإذا لم يجيب مطالبهم باغتوا الحجيج بالفار . بل قال المرحوم إبراهيم رفعت باشا الذي تولى إمارة الحمل سنين إنه زار غار حراء سنة ١٣١٨ ومعه مائة جندي وقال « وما ينبغي لرازي هذا الجبل أن يحملوا معهم الماء الكافي وأن يكونوا جماعاً يحملون السلاح حتى يدقوا عن أنفسهم شر الصوص من العربان الذين يترصون للفرص لسلب الحجاج أمتصهم وتقودهم خضوصاً في مكان متقطع كهذا لا يقصده إلا بعض الحجاج . وقد بلنني أن أمراياً قتل حاجاً فلم يجد معه غير ريال واحد فقيل له : « من أجل ريال؟ فقال وهو مرح : الريال أحسن منه »

ذلكم الحج قبل سنين ، وأما الحج في هذا العصر ففدتتهات وسائله وتيسرت مسافاته وأمنت سبله . تنقل الحجاج بواخر كبيرة . وحسبك ببواخر شركة مصر التي أعدت لراحة الحجاج وتمكينهم من أداء فرائض الدين في يسر وطأة نيفة . في كل باخرة مصلحٌ تقام فيه الصلوات الخمس ويؤذن لكل وقت . فإذا بلغ الحاج جدة وجد الطوفين في انتظاره يتكفل الطوف الذي يختاره براحة وإعداد السيارات له في كل طريق . ويجدون في مكة العناية

ودرجة ، فلا بد من أن يهبأ هؤلاء الطلاب لهذا التعليم تهيئة حسنة تلائم تهيئة المصريين له . وقد اجتمع فريق من قادة الرأي الشرقي العربي منذ أكثر من عام في لجنة التأليف والترجمة والنشر وتشاوروا في ذلك كما تشاوروا في غيره من ألوان التعاون الثقافي ، ورسخوا لذلك خطة وشرعوا له نظاماً . ثم أخذت وزارة المعارف تفكر فيه وتستعد للدعوة إلى مؤتمر عربي شرقي . والذي أرجوه أن يكون انعقاد هذا المؤتمر دورياً وأن يكون هذا المؤتمر متنقلاً في الأقطار العربية على نحو ما يسير عليه المؤتمر الطبي الذي أنشئ منذ حين .

وقد شهدت في العام الماضي — ممثلاً لوزارة المعارف — مؤتمر اللجان الوطنية للتعاون الفكري ، تحدثت فيه إلى المؤتمرين بأن مصر تستطيع أن تكون مركزاً من أهم المراكز لهذا التعاون الفكري إذا نهضت ببنائها الثقافية نحو الأقطار العربية . ذلك لأنها بحكم مركزها الجغرافي وبحكم نهضتها الحديثة أصدق صورة لما تطلع إليه عصبة الأمم من هذا التعاون الفكري الخالص الذي يقارب بين الأمم وبلنني ما بينها من الفروق ويرتفع بجياتها العقلية عن ألوان الخصومة وضروب النزاع . فالجامعة المصرية مثلاً بيئة تلتقي فيها الثقافات الانسانية كلها تقريباً ، يجعلها إليها أساتذة ممتازون من المصريين ومن الأوربيين على اختلاف أوطانهم ومذاهبهم في السياسة والدين والاقتصاد . وهذه الثقافات كلها تلتقي وتمتزج وتصهر في القدر المصري الذي يسيها ويتمثلها ويطبعها بعد ذلك شيئاً ما بطابعه المصري الخاص . وهو قادر بعد هذا على أن يذيعها في بلاد للشرق شرقية غربية عربية أوربية بريئة مما يفسد الثقافة عادة من التمسب والهوي .

وقد وقع هذا الحديث من المؤتمرين موقماً حسناً . فهل يقع هذا الحديث من المصريين أنفسهم موقماً حسناً ، وهل يشعر المصريون بأن فرصة ذهبية كما يقال تناح لهم الآن ؟ ، فلنكل شر أتر حسن ، والشأن أن حاجتنا إلى الأوربيين لا تزال شديدة في التعليم ، والأثر الحسن لهذا الشأن أننا نستطيع أن نكون رواد العلم والثقافة والأمن والسلام والتوفيق بين الشرق والغرب جميعاً . فإذا أرادت مصر أن تنهز هذه الفرصة فذلك يسير عليها لا يحتاج إلا إلى أن تصني بتربية الصلة بينها وبين لجنة للتعاون الفكري في جنيف ومعهد التعاون الفكري في باريس من جهة ، وبينها وبين الليثات والماهد العلمية في للشرق العربي ، بل في للشرق الاسلامي من جهة أخرى .

براحة الحجاج وصحته . فالحكومة تتخذ الوسائل التي تمنع الزحام ، وتراقب مساكن الحجاج وتلزم أصحابها أن يطهروها وينظفوها فإذا حان وقت الخروج إلى منى وعرفات ، احتاطت الحكومة فنمت للتزاحم في الطريق وعينت براحة الحجاج على قدر استطاعتها . وإذا قضى الناس مناسكهم وأرادوا السفر إلى المدينة رُحِّص لهم في السفر على ترتيب قدومهم مكة الأسبق فالأسبق حتى لا يختل النظام ، ويشدد الزحام ، وحتى لا تضيق بهم المدينة . وكذلك يلزم زائرو المدينة . الخروج بمد ثمانية أيام ليعسحوا لغيرهم فلا يجتمع فيها إلا وفود ثمانية أيام طول الموسم

والناس في إقامتهم بمكة ، وسيرهم إلى منى وعرفات ، وسفرهم إلى جدة والمدينة يتحلون بالليل والنهار آمنين مطمئنين لا يخافون على نفس ولا مال . ويظفرون بطمأنينة لا يظفرون بمثلهما في البلاد الأخرى ، ولا يظفرون في الحق من يقول إن الأمن في بلاد الحجاز اليوم لا يظفر به إنسان في غيره من بلاد العالم . فإذا خرج الرجل الفرد عملاً جيبه الذهب بقطع للطريق بين مكة والمدينة نهاراً وليلاً ليس معه رفيق ولا حارس لم يخش على نفسه ولا ماله ، وأحاط به الأمن في يقظته ونومه وليله ونهاره . أمر لم نسمع به ولا نسمع به اليوم في قطر من أقطار العالم التمدن أو المتوحش

وقد حدثني أحد الحجاج ونحن بمكة أنه ذهب إلى المدينة في رقعة فوقت منهم حقيبة في الطريق ولم يشعروا بها وتمطت السيارة في الطريق يوماً أو يومين . فلما بلغوا المدينة افتقدوا الحقيبة فأخبروا الشرطة فردتها إليهم بعد قليل . وأخبرت أن حاجباً آخر كان يظوف بالكعبة فسقطت منه ساعة فذهب إلى الشرطة فردوها إليه . وأخبرت أن طالباً من طلبة الجامعة سقطت منه ورقة بنك قيمتها جنيه في سوق مكة ولم يفتقدوها إلا بعد أن رجع إلى المدرسة السعودية التي كنا نزل بها . فلما رجع إلى السوق وجدها حيث سقطت أمامه الذي كان الذي كان يشتري منه . وقد تواترت الأقوال في أمثال هذه الحوادث حتى لم يبق مكان للشك فيها ، وحتى اطمان الناس فتركوا أمتهم الثقيلة في مساكنهم ليرجموا إليها بعد قضاء مناسكهم ولم يجدوا حاجة إلى أخذنا معهم . فنحن تركنا بعض متاعنا في جدة أمام الفندق المصري فأرسل إلينا في أيام مختلفة لم نفقد منه شيئاً وقد تأخر

متاع بسن الطابفة كثيراً فقلق ؛ فقلت له : ستأني حقائبك لا بحالة فان شيئاً لا يضيع في هذه البلاد . وكان يسكن إلى قولى حيناً ثم بتاده الفلق حتى جاءت أمتته كاملة . وأخبرني مخبر عن رجل من الذين ذهبوا إلى الحجاز أنه كان في سيارة ضاقت بأمتة الراكبين فأخذوا حقيبة عليها اسم صاحبها وتركوها في الطريق عمداً ليتحققوا ثم طلبوها حيناً بلنوا غائبهم فردت إليهم والمسافة بين مكة والمدينة زهاء ٥٠٠ كيلو كانت تقطع في أربعة عشر يوماً وقد قطعها ركب الحمل المصري سنة ١٣١٨ من الهجرة في ١٢٥ ساعة وخمسين دقيقة في أربعة عشر يوماً . وتقطعها السيارات الكبيرة اليوم في أربع عشرة ساعة ، ولكن الدافرن يحتاجون إلى الراحة صرات على الطريق فيبيتون ليلة في بعض المراحل ، وللطريق كله غير معبد ، وفيه مسافة قصيرة رملية تسوخ فيها السيارات إن لم يحذر السائق

وقد خرجنا من جدة إلى المدينة بعد المغرب قبلتنا رابناً بعد سبع ساعات ، وبقنا بها ثم استأنفنا السير حتى آملين أن نبلغ المدينة في نهارنا ولكن ساحت بعض الـيارات في الطريق فأثرنا أن نبيت في مكان اسمه أبيار بنى حصان . وخرجنا منها فيلنا المدينة بعد العصر . رلكننا في رجوعنا إلى جدة خرجنا من المدينة ضحى قبلنا رابناً وقت المشاء بعد أن استرحنا في الطريق ساعتين ونصفاً في ثلاثة مواضع . وبقنا في رابع وتركناها ضحى قبلنا جدة ظهراً بعد سير خمس ساعات . فكان سيرنا من المدينة إلى جدة ثلاث عشرة ساعة ونصفاً . وإذا أصلح الطريق سهل أن تقطع المسافة كلها في عشر ساعات . وأمكن الراكب التسجل أن يقطعها في ثمان ساعات أو سبع . وما أقرب هذا سفرأ وأيسره

— ٢ —

ولست أقول إن وسائل الحج بلغت من البسر والنظام الغاية التي نرجوها ؛ ولا أزعم أن الحرمين الشريفين والحجاز ، في الحال التي يتمناها مفكرو المسلمين ؛ فلا يزال المسلمون يرجون للحجاز نظاماً وعمراً لا يذكر معه ما يسره الله في السنين الأخيرة من الإصلاح والتنظيم . لا يزال مفكرو المسلمين يطعمون في أن يروا في الحجاز آثار للتعاون الاسلامي ، وبذل المال في سبيل الله

نم يرجو كل مسلم أن يصلح المسى بين الصفا والروية
فيفصل من للسوق والطريق ويجعل على شاكلة شجر الداعي أنه
في عبادة يبنى أن تفرغ لها نفسه ، ويتم لها توجهه . وما أحوج
الحرمين في مكة والمدينة إلى أن ترحح عنها الأئمة المجاورة
ويدور بهما مهبع واسع يظله الشجر . وهناك بمد هذا إصلاح
مذبح مني وحفظ لحوم الأضاحي وجلودها لينتفع بها أو بآثارها
الفقراء طول العام . ثم تبيته ماء زمزم في أوان ترسل إلى الأقطار
الاسلامية ، وقد أثبت البحث أنه ماء نافع مرىء فضلا عما له في
نفوس المسلمين من حرمة . ثم إضافة مكة والمدينة وسوق النساء
إلى دورها ومساجدها ، وأبرز غير هذه كثيرة

هذا كله جدير بعناية المسلمين وتعاونهم وبذلهم من أموالهم
وأفكارهم وأعمالهم . وإن يؤدوا واجبه ويربوا عن اهتمامهم بدنيهم
ويبرهوا من للتصير حتى يحققوا هذا كله بل أكثر منه

وقد تحقق للشرط الأول لكل إصلاح وهو الأمن الشامل .
والطمأنينة العامة يسرها الله للحكومة السعودية واستحقت بهما
مثوبة الله وشكر المسلمين كافة . فعلى المسلمين جميعاً أن يتقدموا
فيتعاونوا جميعاً على خطة مهيبة خالصة لوجه الله يعالجون بها من
أمور الحجاز ما يجمهه سورة الحضارة المسلمين وتآلفهم وتعاونهم .
ومن أولى من المسلمين بالتعاون والتآخي ودينهم دين الأخوة العامة
والتعاون على البر والتقوى . والله يهيء للمسلمين من أمرهم رشداً
ويوفق للخير حكومات الاسلام عامة والحكومة المصرية خاصة
وهي التي حملت النصب الأوفر في أمور الحجاز منذ قرون كثيرة
والتي يؤمل أن يكون فيها خيراً كثيراً في رعاية جلالة الملك الصالح
« فاروق الأول » حفظه الله

فبلغنا رابعا بعد ثلاث عشرة ساعة ، وقد استرحنا على الطريق
ثلاث ساعات وعشرين دقيقة في ثلاثة منازل . فكان سيرنا بين
المدينة ورابع زهاء عشر ساعات

واستأنفنا السير نحو نجد فبلغنا جدة بعد خمس عشرة ساعة
وكان توقفنا على الطريق ساعة في منزلين ، فكان سيرنا من طيبة
إلى جدة أربع عشر ساعة . والمسافة بينهما نحو خمسمائة كيلو
تقطعها السيارات بالسير الوسيط في عشر ساعات ويستطيع المتعجل
أن يطويها في ثماني ساعات أو سبع . فإذا يشكو المسافر من سفر
يقدر بالاطاعات لا الأيام والشهور ثم لا يجد فيه ظمأ ولا جوع
ولا حر ولا بر ولا خوف ؟

عبد الوهاب عزام

حتى تكون أحوال الحجاز مكافئة لمكائنه عند المسلمين ،
ومصورة عناية المسلمين به وتدبيرهم إياه

لا يزال المسلمون يتعنون أن يروا الحجاز آخذاً من ثروة
المسلمين وعلوهم رتبهم ما تأخذ الأماكن المقدسة الأخرى
من الدين يقدسونها

وما أسعد المسلم للضيور على دينه المعنى بأقامة شعائره يوم
يذهب إلى الحجاز فيرى الطرق مهيمة بين جدة ومكة ثنى عرفات
وبين جدة والمدينة ، ويرى في طريق المدينة فنادق يأوي إليها
فيجد راحتها وطعامه وشرايه كما يشتهي ، ويجد مواضع للوضوء
والصلاة تمكنه من إقامة الشميرة على خير الوجه

ما أسعده يوم يجد في منى وعرفات مواضع للعلمارة والصلاة
ميسرة على وجه يليق بهذه البقاع المظهرة . إن المسلمين يفسرون
اليوم خيامهم في منى وعرفات في أمن وسلام ونظام ، ولكن
هذه الخيام المتفرقة تقسمهم فلا يجتمعون إلا قليلا . فإجل أن
يهباً في منى وفي عرفات مكان واسع جامع يجمع الناس جميعاً في
صعيد واحد يرى بعضهم بعضاً فيشعر المسلم بالجماعة الاسلامية بمنته
والأخوة الاسلامية مصورة . فإذا استمع هؤلاء جميعاً إلى خطيب
أو واعظ أو داع يتكلم في بجزهم معاً ويمظهم معاً ويدعو
فيؤمنون بصوت واحد ويرفمون أيديهم جملة واحدة كان في هذا
من الجمال والروعة ما لا ينساه المسلم على مر الزمان وبقيت هذه
الصورة في نفسه حيثما سار تذكره بالأخوة الاسلامية

وهل أغلو إذا قلت إن من المسلمين من يرحو أن يكون في
منى مدرج ينحت في الجبل يجمع مئات الآلاف من الحجاج يجتمعون
إذا شاءوا ويتفرقون في سكون وطمأنينة وسلام في وقت قليل
وحركة يسيرة كما تفعل الأمم الأخرى في مجامعها التي تضم آلاف
كثيرة ؟ ولماذا لا يكون الأمم الاسلامية بيت في مكة أو المدينة
يجتمع فيه بعد موسم الحج مثلا ممثلو هذه الأمم ليتشاوروا فيما بينهم
ويداولوا الآراء فيما يصلح المسلمين ويرفع أخلاقتهم ويسمدم بين
الأمم ؟ . لماذا لا يبذل المسلمون من أموالهم وأفكارهم لإنشاء
المدارس والملاجئ والمستشفيات في الحجاز ، وفي إنشاء المكاتب
ونشر الكتب الاسلامية والمجلات تبحث الأمور الاسلامية
المشتركة وتقصم إلى الترشيد بين التربية الاسلامية والثقافة
الاسلامية في العالم الاسلامي جهد الطاقة . إن الحجاز يبنى أن
يكون ملتقى الحضارات الاسلامية